مروان بن الحكم

أعلام الخلفاء
الأمويين

مروان بن الحكم

.. هو مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، الملك أبو عبد الملك القرشي الأموي، يكنى أبا القاسم وأبا الحكم ولد بمكة وهو أصغر من ابن الزبير بأربعة أشهر، روى عن عمر وعثمان وعلي وزيد وروى عنه سهل بن سعد، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين، وعروة، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبيد الله بن عمر، ومجاهد بن جبر، وأبنه عبد الملك. وكان كاتب ابن عمه عثمان ودافع عن عثمان يوم الدار، وسأل عنه علي بن أبي طالب يوم الجمل وقال: يعطفني عليه رحم ماسة، وهو مع ذلك سيد من شباب قريش، وكان يتتبع قضاء عمر، وتولى ولاية المدينة في عهد معاوية وكان الحسن والحسين يصليان خلف مروان ولا يعيدان، وكان إذا وقعت معضلة - أثناء ولايته على المدينة - جمع من عنده من الصحابة فاستشارهم فيها، وهو الذي جمع الصيعان فأخذ بأعدلها، فنسب إليه فقيل صاع مروان، وكان ذا شهامة وشجاعة ومكر ودهاء وكان شديد الحب لبني أمية، وكان متحمسا- لبيعة يزيد بن معاوية ولما توفي يزيد خرج مروان وبنو أمية من المدينة إلى الشام بصحبة الجيش الأموي[1].

ولم يبايع مروان ابن الزبير والتف زعماء القبائل وبنو أمية الموجودين بالشام حوله وبايعوه وكان يحمل بين جنبيه طموحات للزعامة وكانت هذه الطموحات مع رغبته في بقاء الخلافة في البيت الأموي هو الدافع لخروجه على ابن الزبير، وخير دليل على ذلك إقدامه على مبايعة ابنيه من بعده عبد الملك، وعبد العزيز - بولاية العهد، وهناك روايات تذكر أن مروان بن الحكم كان قد عزم على

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، 476/3.

مبايعة ابن الزبير لولا أن تدخل عبيد الله بن زياد وغيره في آخر لحظة وثنوه عن عزمه واقنعوه أن يدعو لنفسه. ونجح مروان في القضاء على أنصار ابن الزبير بالشام وإعادة مصر إلى الأمويين وحاول إعادة العراق والحجاز ولكنه لم يتم هذا العمل وترك إستكماله لابنه عبد الملك.

بدأ مروان بن الحكم - بعد أن تزعم المعارضة الأموية بتوحيد صفوفه والدخول في صراع ضد ابن الزبير، ولم يبدأ مروان بمواجهة ابن الزبير في الحجاز وإنما لجأ إلى انتزاع الأقاليم البعيدة وذلك ليحسر نفوذه أولا- ومن ثم يتيسر له القضاء عليه، وجاء مروان بن الحكم إلى الحكم بعد عقد مؤتمر الجابية [1] لأهل الشام.

ففي الجابية عقد الكلبيون مؤتمرهم وتشاوروا في أمر البيعة والخلافة، واجتمع رأي الناس على البيعة لمروان ومن بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد بن العاص بعد خالد، فكانت تلك المعادلة هي التي جمعت بين مختلف الآراء وأرضت جميع الاتجاهات، وقد دارت نقشات كثيرة، وكان العديد من زعماء القبائل وقادة بني أمية قد حضروا. ومن هؤلاء الزعماء،

حسان بن مالك بن بحدل الكلبي والحصين بن نمير السكوني، وروح بن زبناع الجذامي، ومالك بن هبيرة السكوني وعبد الله بن مسعدة الفزاري، وعبد الله بن عضاة الأشعري، وغيرهم من الشخصيات المؤثرة والمعارضة لابن الزبير، وقد قلبت آراء عديدة وكثيرة حتى استقر الرأي على مروان، ولم يمتنع مروان عن تقديم امتيازات لقبائل كلب وكندة لكي يستميلهم، وكانت له اتفاقات سرية

(1) الجابية: بلدة من أعمال دمشق من ناحية الجولان.

وخاصة مع بعض الزعماء مما كان له الأثر الكبير في كسب المؤيدين له فمروان خطط واستطاع بشتى الطرق الوصول إلى الحكم في بلاد الشام رغم الظروف الصعبة آنذاك.

وكانت أهم قرارات مؤتمر الجابية، عدم مبايعة ابن الزبير، استبعاد خالد بن يزيد من الخلافة لأنه غلام والعرب لا تحب مبايعة الأطفال من ناحية ومن الناحية الأخرى هم الآن في أزمة وهم أحوج إلى الرجل المجرب الخبير علّه يقودهم إلى النصر وينقذهم من وضعهم المتدهور، مبايعة مروان بن الحكم وهو الشيخ المحنك، أن يتولى الخلافة بعد مروان على هذا الشرط شفويا-، الاستعداد لمجابهة وقتال المخالفين إتباع ابن الزبير في الشام بادي الأمر[1].

تمخض مؤتمر الجابية عن انتقال الخلافة الأموية من البيت السفياني إلى البيت المرواني وانعقدت البيعة لمروان وحل مؤتمر الجابية، مشكلة الخلافة بين بني أمية - وكانت هذه خطوة حاسمة ولكن لم يكن تثبيت هذا الأمر سهلا- فلا زالت تعترضه صعوبات كبيرة، فالضحاك بن قيس، زعيم القيسيين المناصر لابن الزبير قد ذهب إلى مرج راهط وأنضم إليه النعمان بن بشير الأنصاري والي حمص وزفر بن الحارث الكلابي، أمير قنسرين، وكان واضحا- أنهم يستعدون لمواجهة الأمويين فكان على مروان أن يثبت أنه أهل للمسئولية وحمل أعباء الخلافة، والدفاع عنها وقد حقق أنصار مروان أول نجاح لهم بالاستيلاء على دمشق وطرد عامل الضحاك عنها، وكان أول فتح على بني أمية ولم يضيع مروان وقتا-، فقد عبأ أنصاره

(1) د. شحادة الناطور، عبد الله بن الزبير، ص132، إسماعيل الجبوري، الدور السياسي لأهل اليمن في الشام، صـ46، 47، سليمان بن صالح الخراشي، عبد الله بن الزبير، ص147..

من قبائل اليمن في الشام كلب وغسان والسكاسك والسكون، وجعل على ميمنته، عمرو بن سعيد، وعلى ميسرته عبيد الله بن زياد، واتجه إلى مرج راهط، فدارت المعركة الشهيرة التي حسمت الموقف في الشام لبني أمية ومروان حيث هزم القيسيون، أنصار بن الزبير، وقتل الضحاك بن قيس، وعدد كبير من أشراف قيس في الشام، واستمرت المعركة حوالي عشرين يوما-، وكانت في نهاية سنة 64 هـ، وقيل في المحرم سنة 65 هـ.

وترتب علي تلك المعركة أن أعادت الملك لبني أمية بعد أن كان مهددا- بالزوال، وحوّلت السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني وتخلص الأمويين من الضحاك بن قيس الذي كان يعتبر معارضا- قويا- للأمويين، وتابعا- مخلصا- لابن الزبير وسقطت قنسرين في يد الأمويين وهرب واليها زفر بن الحارث فتوجه إلى قرقيسيا وكان عليها عياض الحرثي وسقطت فلسطين وهرب ناتل بن قيس الجذامي إلى ابن الزبير، وسقطت حمص وقتل واليها النعمان بن بشير واندلع الصراع بين اليمنية والقيسية ودخلت العصبية القبلية مسرح السياسة العليا للدولة وإذا كان يوم مرج راهط قد انتصر فيه الكلبيون فقد كان نصرا- مؤقتا-، وكان الصراع بين العصبتين القيسية واليمنية من أسباب انهيار الدولة الأموية[1].

كما مكّن انتصار مروان في معركة مرج راهط لدولته في الشام فبسط نفوذه عليها، وكانت خطواته التالية المسير إلى مصر لاستردادها من عامل ابن الزبير، وكانت هذه خطوة تدل على ذكاء

(1) ابن الأثير، الكامل، 618/2، تاريخ الطبري، 473/6، الصلابي، الدولة الأموية، 223/ 1.

مروان، فلمصر أهميتها الكبيرة واستيلاؤه عليها يدعم موقفه في مواجهة ابن الزبير، ولم يكن استيلاؤه عليها صعبا-، فمعظم المصريين هواهم مع بني أمية، وبيعتهم لابن الزبير لم تكن خالصة وإنما كانت بيعة ضرورة، ودعا مروان شيعة بني أمية بمصر سرا- وهذا ما يفسر سهولة استيلاء مروان على مصر فقد سار إليها بجيشه، ومعه عمرو بن سعيد، وخالد ابن يزيد بن معاوية وحسان بن مالك ومالك بن هبيرة وابنه عبد العزيز، ودارت بين مروان وابن جحدم عدة معارك انتصر فيها مروان وهرب ابن جحدم، ثم جاء إلى مروان طالبا- العفو على أن يخرج إلى مكة، فعفا عنه، وكان نجاح مروان في استرداد مصر من جمادي الآخرة سنة 65هـ، وأقام في مصر شهرين لترتيب الأوضاع والاطمئنان عليها، ولما عزم على العودة إلى الشام عين ابنه عبد العزيز واليا- عليها، وأوصاه وصية تدل على حنكة سياسية، وخبرة واسعة، وكان عبد العزيز قد توجس وأخذته وحشة من بقائه في مصر فقال لأبيه: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بني أبي؟ فقال له: يا بني عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بني أبيك واجعل وجهك طلقا- تصف لك مودتهم، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره، يكن لك عينا- على غيره، وينقاد قومه إليك وقد جعلت معك أخاك بشرا- مؤنسا-، وجعلت موسى بن نصير وزيرا- ومشيرا- وما عليك يا بني أن تكون أميرا- بأقصى الأرض، أليس أحسن من إغلاق بابك وخمولك في منزلك؟ [1].

(1) الصلابي، الدولة الأموية، 1 /223.

بعد رجوع مروان بن الحكم قافلا- من مصر أقدم على تجهيز حملتين ضد ابن الزبير في محاولة منه لإعادة العراق والحجاز، فكانت الحملة ضد العراق بقيادة عبيد الله بن زياد وكانت مهمتها الأولى هي محاصرة زفر بن الحارث الكلابي والتخلص منه ثم التقدم نحو العراق، حيث مصعب بن الزبير ولكن هذه الحملة لم تحقق شيئا- من أهدافها في عهد مروان إذ سارع إليه الأجل وتوفى وهي في طريقها لمحاصرة زفر بن الحارث في قرقيسيا وعند مجيء عبد الملك أقر هذه الحملة التي سوف نعرض للحديث عنها فيما بعد، أما ما يتعلق بالحجاز فقد جهز مروان جيشا- من فلسطين يقدر بستة آلاف وأربعمائة فارس بقيادة حبيش بن دلجة القيني، وكان في الجيش الحجاج بن يوسف ووالده، اتجه هذا الجيش نحو الحجاز ولما وصل إلى وادي القرى هرب عامل بن الزبير على المدينة، واستمرت الحملة إلى عهد عبد الملك بن مروان[1].

وختم مروان بن الحكم أعماله بعقد البيعة لوليه عبد الملك بن مروان وعبد العزيز بن مروان مجسدا- لمبدأ التوريث، وكان ذلك قبل وفاته بأقل من شهرين، فبعد نجاحه بإعادة مصر إلى الحكم الأموي، بدأ مروان بالتخطيط لاستبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق من ولاية العهد الذي قرر في مؤتمر الجابية، فتزوج أم خالد بن يزيد وعمل للحصول على موافقة حسان بن مالك بن بحدل الكلبي بتولية العهد لوليه وإبعاد خالد بن يزيد وعمرو بن سعيد الأشدق فوافقه حسان على ذلك، وقد كان عمرو بن سعيد الأشدق هو الذي كان يطالب بولاية العهد بعد مروان وأعلن ذلك بعد رجوعه من قتال مصعب

(1) عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص57، 60.

ابن الزبير، مما دعا مروان بن الحكم إلى أن يعهد لابنيه عبد الملك وعبد العزيز وذلك سنة 65هـ مستعينا- بحسان بن مالك بن بحدل بعد أن أخبره بما يردده عمرو بن سعيد بن الأشدق بأن الأخير هو ولي العهد فقال حسان: أنا أكفيك عمرو. لهذا جمع الناس وخطبهم فبايع الجميع لعبد الملك ثم لعبد العزيز ولم يتخلف أحد[1].

توفي مروان بن الحكم بدمشق لثلاث خلون من شهر رمضان سنة 65هـ وهو ابن ثلاث وستين سنه، وصلى عليه ابنه عبد الملك وكانت مدة حكمه تسعة أشهر وثمانية عشر يوما- ودفن بين باب الجابية وباب الصغير، وقد اختلف في سبب وفاته إذ وردت ثلاث روايات فيها الأولى - ترى أنه توفي بالطاعون، وتذهب الأخرى إلى أن زوجته أم خالد بن يزيد سقته سما- فمات أو وضعت وسادته على رأسه حتى مات، وثالثة ترى أنه توفي وفاة طبيعية، وتناقض الروايات تدل على أن الحقيقة غير معروفة [2].

مواقف من حياته - غفر الله له -:

أعوذ بعدلك يا أمير المؤمنين من جور مروان:

ذكر أنّ معاوية بن أبي سفيان جلس ذات يومٍ بمجلسٍ كان له بدمشق على قارعة الطّريق، وكان المجلس مفتّح الجوانب لدخول النّسيم، فبينما هو على فراشه وأهل مملكته بين يديه، إذ نظر إلى رجلٍ يمشي نحوه وهو يسرع في مشيته راجلا- حافيا-، وكان ذلك اليوم شديد الحرّ، فتأمّله معاوية ثمّ قال لجلسائه: لم يخلق الله ممّن أحتاج إلى نفسه في مثل هذا اليوم. ثمّ قال: يا غلام سر إليه واكشف

(1) البلاذري، أنساب الأشراف، 149/5 - 150، عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص57 - 60.

(2) عبد الملك الريس، الدور السياسي لأهل اليمن، ص57 - 60.

عن حاله وقصّته فوالله لئن كان فقيرا- لأغنينّه، ولئن كان شاكيا- لأنصفنّه، ولئن كان مظلوما- لأنصرنّه، ولئن كان غنيا- لأفقرنّه. فخرج إليه الرسول متلقيا- فسلّم عليه فردّ عليه السّلام. ثمّ قال له: ممّن الرّجل؟ قال: سيّدي أنا رجلٌ أعرابيٌّ من بني عذرة، أقبلت إلى أمير المؤمنين مشتكيا- إليه بظلامةٍ نزلت بي من بعض عمّاله. فقال له الرّسول: أصبحت يا أعرابي؟ ثمّ سار به حتّى وقف بين يديه فسلّم عليه بالخلافة ثمّ أنشأ يقول:

معاوي يا ذا العلم والحلم ... ويا ذا النّدى والجود والنّابل
والفضل ... الجزل
أتيتك لمّا ضاق في الأرض ... فيا غيث لا تقطع رجائي من
مذهبي ... العدل
وجد لي بإنصافٍ من الجّائر ... شواني شيّا- كان أيسره قتلي
الذي ... أهلي
سباني سعدى وانبرى ... وجار ولم يعدل، وأغصبني
لخصومتي ... بسجنٍ وأنواع العذاب مع
قصدت لأرجو نفعه فأثابني ... الكبل
وهمّ بقتلي غير أن منيّتي ... تأبّت، ولم أستكمل الرّزق من
أغثني جزاك الله عنّي جنّة- ... أجلي
فقد طار من وجدٍ بسعدى لها ... عقلي

فلمّا فرغ من شعره قال له معاوية: يا إعرابي إنّي أراك تشتكي عاملا- من عمّالنا ولم تسمعه لنا! قال: أصلح الله أمير المؤمنين، وهو والله ابن عمّك مروان بن الحكم عامل المدينة. قال معاوية: وما قصّتك معه يا أعرابي. قال: أصلح الله الأمير، كانت لي بنت عمٍّ خطبتها إلى أبيها فزوّجني منها. وكنت كلفا- بها لما كانت فيه من كمال جمالها وعقلها والقرابة. فبقيت معها يا أمير المؤمنين، في أصلح حالٍ وأنعم بالٍ، مسرورا- زمانا-، قرير العين. وكانت لي صرمة- من إبلٍ

وشـويهات، فكنـت أعولهـا ونفسـي بهـا. فـدارت عليهـا أقضـية الله وحوادث الدّهر، فوقع فيها داءٌ فذهبت بقدرة الله. فبقيت لا أملك شيئا-، وصرت مهينا- مفكّرا-، قد ذهب عقلي، وساءت حالي، وصرت ثقلا- على وجه الأرض. فلمّا بلغ ذلك أباها حال بيني وبينها، وأنكرني، وجحدني، وطردني، ودفعها عنّي. فلم أدر لنفسي بحيلةٍ ولا نصرةٍ. فأتيت إلى عاملك مروان بن الحكم مشتكيا- بعمّي، فبعث إليه، فلمّا وقف بين يديه، قال له مروان: يا أيّها الرّجل لم حلت بين ابن أخيك وزوجته؟ قال: أصلح الله الأمير، ليس له عندي زوجة ولا زوجته من ابنتي قط. قلت أنا: أصلح الله الأمير، أنا راضٍ بالجّارية، فإن رأى الأمير أن يبعث إليها ويسمع منها ما تقول؟ فبعث إليها فأتت الجّارية مسرعة-، فلمّا وقفت بين يديه ونظر إليها وإلى حسنها وقعت منه موقع الإعجاب والاستحسان، فصار لي، يا أمير المؤمنين خصما- وانتهرني، وأمر بي إلى السّجن. فبقيت كأني خررت من السّماء في مكانٍ سحيقٍ، ثمّ قال لأبي بعدي: هل لك أن تزوّجها منّي، وأنقدك ألف دينارٍ، وأزيدك أنت عشرة آلاف درهمٍ تنتفع بها، وأنا أضمن طلاقها؟ قال له أبوها: إن أنت فعلت ذلك زوّجتها منك.

فلمّا كان من الغد بعث إليّ، فلمّا أدخلت عليه نظر إليّ كالأسد الغضبان، فقال لي: يا أعرابي طلّق سعدى. قلت: لا أفعل. فأمر بضربي ثم ردّني إلى السّجن، فلمّا كان في اليوم الثّاني قال: عليّ بالأعرابي. فلمّا وقفت بين يديه، قال: طلّق سعدى. فقلت: لا أفعل. فسلّط عليّ يا أمير المؤمنين خدّامه فضربوني ضربا- لا يقدر أحدٌ على وصفه، ثمّ أمر بي إلى السّجن؛ فلمّا كان في اليوم الثّالث قال: عليّ بالإعرابي، فلمّا وقفت بين يديه قال: عليّ بالسّيف والنّطع وأحضر السيّاف، ثمّ قال: يا أعرابي، وجلالة ربّي، وكرامة والدي،

لئن لم تطلّق سعدى لأفرّقنّ بين جسدك وموضع لسانك.

فخشيت على نفسي القتل فطلّقتها طلقة- واحدة- على طلاق السّنّة، ثمّ أمر بي إلى السّجن فحبسني فيه حتّى تمّت عدّتها ثمّ تزوّجها، فبنى بها، ثمّ أطلقني. فأتيتك مستغيثا- قد رجوت عدلك وإنصافك، فارحمني يا أمير المؤمنين. فوالله يا أمير المؤمنين لقد أجهدني الأرق، وأذابني القلق، وبقيت في حبّها بلا عقلٍ، ثمّ انتحب حتىّ كادت نفسه تفيض. ثمّ أنشأ يقول:

فـــي القلـــب منّـــي نـــارٌ ... والنّـــار فيـــه الـــدّمار
والجّســـم منّـــي ســـقيمٌ ... فيـــه الطّبيـــب يحـــار
والعـــين تهطـــل دمعـــا- ... فـــدمعها مـــدرار
حملـــت منـــه عظيمـــا- ... فمـــا عليـــه اصـــطبار
فلـــيس ليلـــي ليـــلٌ ... ولا نهـــاري نهـــار
فـــارحم كئيبـــا- حزينـــا- ... فـــؤاده مســـتطار
اردد علـــيّ ســـعادي ... يثيبـــك الجبّـــار

ثمّ خرّ مغشيّا- عليه بين يدي أمير المؤمنين كأنّه قد صعق به قال: وكان في ذلك الوقت معاوية متكّئا-، فلمّا نظر إليه قد خرّ بين يديه قام ثمّ جلس، وقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون. اعتدى والله مروان بن الحكم ضرارا- في حدود الدّين، وإحسارا- في حرم المسلمين: ثمّ قال: والله يا أعرابي لقد أتيتني بحديثٍ ما سمعت بمثله. ثمّ قال: يا غلام عليّ بداوةٍ وقرطاسٍ فكتب إلى مروان: أمّا بعد، فإنّه بلغني عنك أنّك اعتديت على رعيّتك في بعض حدود الدّين، وانتهكت حرمة- لرجلٍ

من المسلمين. وإنّما ينبغي لمن كان واليا- على كورةٍ أو إقليمٍ أن يغضّ بصره وشهواته، ويزجر نفسه عن لذّاته. وإنّما الوالي كالرّاعي لغنمةٍ، فإذا رفق به بقيت معه، وإذا كان لها ذئبا- فمن يحوطها بعده.
ثمّ كتب بهذه الأبيات:

::
:
::
ولّيت، ويحك أمرا- لست : فاستغفر الله من فعل امرئٍ
تحكمه :: زاني
قد كنت عندي ذا عقلٍ وذا أدبٍ : مع القراطيس تمثالا- وفرقان
حتّى أتانا الفتى العذريّ :: يشكو إلينا ببثٍّ ثمّ أحزان
منتحبا- : حقّا- وأبرأ من ديني ودياني
أعطي الإله يمينا- لا أكفّرها :: لأجعلنّك لحما- بين عقباني
إن أنت خالفتني فيما كتبت به : مع الكميت، ومع نصر بن
طلق سعاد وعجّلها مجهّزة- :: ذبيان
فما سمعت كما بُلّغت في بشرٍ : ولا كفعلك حقا- فعل إنسان
فاختر لنفسك إمّا أن تجود بها :: أو أن تلاقي المنايا بين أكفان
:
::
:

ثمّ ختم الكتاب. وقال: عليّ بنصر بن ذبيان والكميت صاحبيّ البريد. فلمّا وقفا بين يده قال: اخرجا بهذا الكتاب إلى مروان بن الحكم ولا تضعاه إلاّ بيده. قال فخرجا بالكتاب حتّى وردا به عليه، فسلّما ثمّ ناولاه الكتاب. فجعل مروان يقرأه ويردّده، ثمّ قام ودخل على سعدى وهو باكٍ، فلمّا نظرت إليه قالت له: سيّدي ما الذي يبكيك؟ قال كتاب أمير المؤمنين، ورد عليّ في أمرك يأمرني فيه أن أطلّقك وأجهّزك وأبعث بك إليه. وكنت أودّ أن يتركني معك حولين ثمّ يقتلني، فكان ذلك أحبّ إليّ. فطلّقها وجهّزها ثمّ كتب إلى معاوية بهذه الأبيات:

لا تعجلنّ أمير المؤمنين فقد ... أوفي بنذرك في رفقٍ وإحسان
وما ركبت حراما- حين ... فكيف أدعى باسم الخائن
أعجبني ... الزاني
أعذر فإنّك لو أبصرتها لجرت ... منك الأماقي على أمثال إنسان
فسوف يأتيك شمسٌ لا يعادلها ... عند الخليفة إنسٌ لا ولا جان
لولا الخليفة ما طلّقتها أبدا- ... حتّى أضمّنّ في لحدٍ وأكفان
على سعادٍ سلامٌ من فتى- قلقٍ ... حتّى خلّفته بأوصابٍ وأحزان

ثمّ دفعه إليهما، ودفع الجّارية على الصّفة التي حدّث له. فلمّا وردا على معاوية فكّ كتابه وقرأ أبياته ثمّ قال: والله لقد أحسن في هذه الأبيات، ولقد أساء إلى نفسه. ثمّ أمر بالجّارية فأدخلت إليه، فإذا بجاريةٍ رعبوبةٍ لا تبقي لناظرها عقلا- من حسنها وكمالها. فعجب معاوية من حسنها ثمّ تحوّل إلى جلسائه وقال: والله إنّ هذه الجّارية لكاملة الخلق فلئن كملت لها النّعمة مع حسن الصّفة، لقد كملت النّعمة لمالكها. فاستنطقها، فإذا هي أفصح نساء العرب. ثمّ قال: عليّ بالأعرابي.

فلمّا وقف بين يديه، قال له معاوية: هل لك عنها من سلوٍ، وأعوّضك عنها ثلاث جوارٍ أبكارٍ مع كلّ جاريةٍ منهنٍ ألف درهمٍ، على كلّ واحدةٍ منهنّ عشر خلعٍ من الخزّ والدّيباج والحرير والكتّان، وأجري عليك وعليهنّ ما يجري على المسلمين، وأجعل لك ولهنّ حظا- من الصّلات والنّفقات؟ فلما أتمّ معاوية كلامه غشي على الأعرابيّ وشهق شهقة- ظنّ معاوية أنّه قد مات منها. فلّما أفاق قال له

معاوية: ما بالك يا أعرابي؟ قال: شرّ بالٍ، وأسوأ حالٍ، أعوذ بعد لك يا أمير المؤمنين من جور مروان. ثمّ أنشأ يقول:

لا تجعلني هداك الله من ملكٍ ... كالمستجير من الرّمضاء بالنّار
أردد سعاد على حرّان مكتئبٍ ... يمسي ويصبح في همٍّ وتذكار
قد شفّته قلقٌ ما مثله قلقٌ ... وأسعر القلب منه أيّ إسعار
والله والله لا أنسى محبّتها ... حتّى أغيّب في قبري
كيف السّلوّ وقد هام الفؤاد بها ... وأحجاري
فأجمل بفضلك وافعل فعل ذي كرمٍ ... فإن فعلت فإني غير كفّار
لا فعل غيرك، فعل اللؤم والعار

ثمّ قال: والله يا أمير المؤمنين لو أعطيتني كلّ ما احتوته الخلافة ما رضيت به دون سعدى. ولقد صدق مجنون بني عامر حيث يقول:

أبى القلب إلاّ حبّ ليل وبغّضت ... إليّ نساءٌ ما لهن ذنوب
وما هي إلاّ أن أراها فجاءة ... فأبهت حتّى لا أكاد أجيب

فلمّا فرغ من شعره، قال له معاوية: يا أعرابي؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين. قال: إنك مقرٌّ عندنا أنّك قد طلّقتها، وقد بانت منك ومن مروان، ولكن نخيّرها بيننا. قال: ذاك إليك، يا أمير المؤمنين. فتحوّل معاوية نحوها ثمّ قال لها: يا سعدى أيّنا أحبّ إليك: أمير المؤمنين في عزّه وشرفه وقصوره، أو مروان في غصبه واعتدائه، أو هذا الأعرابي في جوعه وأطماره؟ فأشارت الجّارية نحو ابن عمّها الأعرابي، ثمّ أنشأت تقول:

هذا وإن كان في جوعٍ وأطمار ... أعزّ عندي من أهلي ومن
وصاحب التّاج أو مروان جاري

عاملـــــــــــــــــــــه :: وكـلّ ذي درهـمٍ مـنهم ودينـار
:

ثمّ قالت: لست، والله، يا أمير المؤمنين لحدثان الزمان بخاذلته، ولقد كانت لي معه صحبة جميلة، وأنا أحقّ من صبر معه على السّرّاء والضّرّاء، وعلى الشّدّة والرّخاء، وعلى العافية والبلاء، وعلى القسم الذي كتب الله لي معه. فعجب معاوية ومن معه من جلسائه من عقلها وكمالها ومروءتها وأمر لها بعشرة آلاف درهمٍ وألحقها في صدقات بيت المسلمين [1].

يعوقني عنه أبوك وينهاني:

عن إبراهيم بن جعفر بن محمود الأشهلي عن أبيه قال كان حويطب بن عبد العزى قد بلغ مائة وعشرين سنة ستين في الجاهلية وستين في الإسلام فلما ولي مروان بن الحكم المدينة دخل عليه حويطب فقال له مروان ما نيتك فأخبره فقال له تأخر إسلامك أيها الشيخ حتى سبقك الأحداث فقال والله لقد هممت بالإسلام غير مرة وكل ذلك يعوقني عنه أبوك وينهاني ويقول تدع دين آبائك لدين محمد فأسكت مروان وندم على ما كان.

أظنك أحمق:

قال مروان لحبيش بن دلجة أظنك أحمق، فقال أحمق ما يكون الشيخ إذا عمل بظنه[2].

(1) ابن الجوزي، أخبار النساء، 3/1 - 4.
(2) ابن الجوزي، الأذكياء، ص 62.

لقد هممت أن أفعل وأفعل:

قال أبو بكر بن أبي شيبة: قام أبو هريرة إلى مروان بن الحكم وقد أبطأ بالجمعة، فقال له: أتظل عن ابنة فلان تروحك بالمراوح وتسقيك الماء البارد، وأبناء المهاجرين والأنصار يصهرون من الحر! لقد هممت أن أفعل وأفعل، ثم قال: اسمعوا من أميركم [1].

كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟

وقيل لأبي عقيل البليغ العراقي: كيف رأيت مروان بن الحكم عند طلب الحاجة إليه؟ قال: رأيت رغبته في الشكر، وحاجته إلى القضاء أشد من حاجة صاحب الحاجة [2].

وما هي؟

بينما مُعاوية بن أبي سُفيان جالسٌ في أصحابه إذ قيل له: الحسنُ بالباب؟ فقال معاوية: إنْ دخل أَفْسد علينا ما نحن فيه؛ فقال له مروان بن الحَكَم: ائذن لي، فإني أسأله ما ليس عنده فيه جَواب؛ قال مُعاوية: لا تَفعل، فإنهم قَوْم قد. أُلْهِموا الكلامَ، وأذن له. فلما دَخل وجَلس، قال له مَرْوان: أَسرْع الشيبُ إلى شاربك يا حسن، ويُقال إن ذلك من الخُرْق، فقال الحسن: ليس كما بلغك، ولكنَّا - معشر بني هاشم - أفواهُنا عَذْبةٌ شِفَاهُها، فنساؤنا يُقْبِلن علينا بأنفاسهنّ وقبَلِهِن، وأنتم معشرَ بني أمية فيكم بَخَر شديد، فنساؤكم يَصرفن أفواههنّ وأنفاسهن عنكم إلى أصْداغكم، فإنما يَشِيب منكم موضعُ العِذَار من أجل ذلك. قال مَروان: إن فيكم يا بني هاشم خَصْلَةَ سَوء؟ قال: وما هي؟ قال: الغُلْمة؟ [3] قال: أجل، نُزعت الغُلْمة مِن نسائنا ووُضعت في رجالنا،

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 16/1.
(2) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 64/1.
(3) الغُلْمة - شَهْوة النِّكاح من الرجال والنِّساء.

ونُزِعت الغُلْمة من رجالكم ووُضعت في نِسَائكم، فما قام لأموية إلا هاشميّ. فَغضِب مُعاوية، وقال: قد كنتُ أَخبرتكم فأبيتم حتى سَمِعتم ما أَظلم عليكم بَيْتَكم، وأفسد عليكم مَجْلِسكم. فَخَرج الحسنُ وهو يقول:

ومارستُ هذا الدَهرَ خمسين حجَّـــــــــــــــــــــــــة ... وحَمْسا- أزَجّي، قائلا بعد قائل
فَلا أنا في الدُّنيا بلغتُ جَسِيمها ... ولا في الذي أهْوَى كدحتُ بطائـــــــــــــــــــــــــل
وقد شَرَعت دونـي المَنايا أكُفَّهـــــــــــــــــــــــــا ... وأيقنتُ أنّي رَهْنَ مَوْتٍ مُعاجل (1)

أَشِرْ عليّ في الحُسين؟

قال العُتبيّ: دعا مُعاويةُ مَروان بن الحكم، فقال له: أشِر عليّ في الحُسين؛ قال: تخرجه معك إلى الشام فَتَقطعه عن أهل العراق وتَقْطعهم عنه؛ قال: أردتَ واللّهّ أن تستريح منه وتَبْتليني به، فإن صبرتُ عليه صبرتُ على ما أكره، وإن أسأتُ إليه كُنتُ قد قطعتُ رحمه. فأقامه، وبعث إلى سعيد بن العاص، فقال له: يا أبا عثمان، أَشِرْ عليّ في الحُسين؟ قال: إنك واللّهّ ما تخاف الحسين إلا على مَن بعدك، وإنك لتُخلِّف له قِرْنا إنْ صارعه لَيَصْرعنّه، هانْ سابقه لَيَسبقنّه، فَذَرِ الحُسين منبتَ النّخلة، يشربْ من الماء، ويَصْعد في الهواء، ولا يَبْلغ إلى السماء؛ قال: فما غَيّبك عنّي يوم صِفّين؟ قال: تَحملتُ الحُرم، وكُفيتَ الحَزْم، وكنتُ قريبا-، لو دعوتَنا لأجبناك، ولو أمرت لأطعناك؛ قال معاوية: يأهل الشام، هؤلاء قومي وهذا كلامهم (2).

(1) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 468/1.
(2) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 469/1.

الصبر على خيانة الولاة:

كان مروان بن الحكم له غلام وكله بأمواله فقال له يوما-: أظنك تخونني! فقال: قد يخطأ الظن، اتخذتني في مدرعة صوف ولم أملك قيراطا-، وأنا اليوم أتصرف في ألوف وأتبختر في خزوز، إني أخوّنك وأنت تخون معاوية، ومعاوية يخون الله ورسوله! (1).

كلام مروان بن الحكم وولده في الخلفاء:

كتب مروان إلى النعمان بن بشير يخطبُ إليه ابنته أُمَّ أبانٍ لابنه عبد الملك: بسم الله الرحمن الرحيم. من مروان بن الحكم إلى النعمان بن بشير. سلام عليك، فإني أحمدُ إليكَ الله الذي لا إله إلا هو. أما بعد، فإن لله ذو الجلال والإكرام والعظمة والسلطان، قد خصَّكم - معاشر الأنصار - بنُصرة دينه، وإعزاز نبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم وقد جعلك منهم في البيْتِ العميمِ، والفرعِ القديم. وقد دعاني إلى إحباب مصاهرتك والإيثار لك على الأكفاءِ من ولدِ أبي. وقد أحبَبْتُ أن تزوّجَ ابني عبد الملك بن مروان ابنتك أمَّ أبانٍ بنتَ النعمان، وقد جعلت صداقها ما نطق به لِسانكَ وترنَّمتْ به شفتاك، وبلغهُ مُناك. وحكمت به في بيت المالِ قبلكَ. فكتب إليه النعمان: من النعمان بن بشير إلى مروان ابن الحكم. بدأت باسمي سُنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك أني سمِعْتُ خليلي صلى الله عليه وسلم يقول:"**إذا كتب أحدُكم إلى أحدٍ فلْيبدأ بنفسهِ**-.

أما بعد، فقد بلغني كتابُكَ، تذكر من مودَّتِك ما أراك صادقا-، فغُنْما- أصبت، وبحظِّك أخذْتَ، ونفسَكَ زكَّيْتَ، لأناً ناسٌ قد جعل الله

(1) الراغب الأصفهاني، محاضرات الأدباء، 72/1.

حميدا- حُبنا إيمانا-، وبُغْضنا نفاقا-. وأما ما أطْنَبْتَ فيه من ذكرُ شرفنا، وقديم سلفنا، ففي مدحِ الله لنا وذكرِهِ إيانا في كتابهِ المنزل، وقرآنه المفصَّل على نبيه صلى الله عليه وسلم ما أغنى به عن مدح غيره من المخلوقين، فأما ما ذكرْتَ من إيثارك إياي بابنك عبد الملك على الأكفاء من ولد أبيك، فحظِّي منك مردودٌ عليهم، موفَّرٌ لهم غير مشاحٍّ فيه، ولا منافَسٍ عليه، وأما ما ذكرتَ من بذْلِك لي من بيت المال قبلي، وبما نطق به لساني، وترنَّمتْ به شفتاي، وبلغه منای، فلعمري لقد أصبح حظي فيه - والحمدُ لله - أوفرَ من حظِّكَ، وسهْمي فيه أجزلَ من سهمِكَ، وأمري فيه أجوزَ من أمركَ، وبعدُ: فلو أنَّ نفسي طاوعتني لأصبَحتْ.. لها حفَدٌ مما يُعَدَّ كثيرُ ولكنها نفسٌ عليَّ كريمةٌ.. عَيوفٌ لأصهارِ اللئامِ قذورُ في أبياتٍ أُخر قال معاوية لمروان: منْ تَرى لأهل العراق؟ قال: من لا يَفْحجُ الحلوبَ حتى تدنوَ الدِّرَّة، ولايدني العلبة حتى تمسَحَ الضرَّةَ. وقال مروان لابنه: آثر الحق، وحصِّنْ مملكتَكَ بالعدل، فإنهُ سورها المنيع الذي لا يُغْرِقُهُ ماءٌ، ولا تحرقُهُ نارٌ، ولا يهدِمُهُ منجنيق. وذكر أبو هريرة معاوية في مجلس فيه مروان فاغتابه، ثم خاف أن يبلُغَ معاوية ذلك، فقال: إنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " المجالسُ بالأمانة " وسأل مروان أن يكتم عليه. فقال مروانُ: والله. لما ركبت مني في ظنِّك بي أنيِّ أنقُلُ حديثَكَ أعظَمُ ممَّا ركبتَ من معاوية[1].

ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيرا- منه:

حبس مروان بن الحكم رجلا- من بني عبس فأتاه بشيخ منه فكلمه فيه فأبى أن يطلقه. فقال: أما والله لئن كنت حبسته، لقد كان تقيا-، ذا مروءة. قال: وما المروءة فيكم يا أخا بني عبس؟ قال: صدق الحديث

(1) الآبي، نثر الدر، 29/3 - 30.

وصلة الرحم، وإصلاح المال. فأعجب مروان وكان إذا أعجب الشيء دعا له ابنيه عبد الملك وعبد العزيز ليسمعاه، قال: فدعاهما ثم استعاده، فأعاد الشيخ القول، وحضر طعام مروان فدعاه إلى طعامه فلم يجبه، فدعا ابنا له كان معه فأجاب. قال مروان للشيخ. ابنك خير منك يا أخا بني عبس، دعوناك إلى طعامنا فلم تجب، ودعوناه فأجاب فقال العبسي: ما أحسبه ضر أباه إن كنت خيرا- منه. فضحك مروان حتى استلقى وأطلق له صاحبه [1].

أتقضي لي ثلاثين حاجة؟

وقال مروان بن الحكم يوما- إني مشغوف ببغلة للحسن بن عليّ - عليهما السلام - فقال له ابن أبي عتيق: إن دفعتها إليك أتقضي لي ثلاثين حاجة؟ ومروان يومئذ أمير بالمدينة. قال: نعم، قال: إذا اجتمع الناس عندك العشية فإني آخذ في مآثر قريش، وأمسك عن ذكر الحسن، فلُمني على ذلك، فلما أخذ القوم مجالسهم أفاض في أوليّة قريش. فقال له مروان: ألا تذكر أوليّة أبي محمد، وله في هذا ما ليس لأحد؟ قال: إنما كنا في ذكر الأشراف، ولو كنا في ذكر الأنبياء لقدّمنا لأبي محمد ماله. فلما خرج ليركب تبعه ابن أبي عتيق، فقال له الحسن - عليه السلام، وتبسّم - ألك حاجة؟ فقال ذكرت البغلة، فنزل الحسن ودفعها إليه [2].

أفرضوا له:

قال عبد الرحمن: وقف أعرابي على مروان بن الحكم وهو يفرض للناس بالمدينة فقال له: افرض لي فقال: قد طوينا الكتاب. فقال: افرض لي. فقال: قد طوينا الكتاب. فقال: أما علمت إني القائل

(1) الآبي، نثر الدر، 28/6.
(2) الآبي، نثر الدر، 178/7.

الوافر:

إذا هــزّ الكــريم يزيــد خيــرا ⁝ وان هــزّ اللئــيم فــلا يزيــد

فقال له مروان: نشدتك بالله أنت القائل له؟ قال: نعم. قال: أفرضوا له [1].

فقد طمع فيه من هو دونه:

نازع عبد الله بن الزبير مروان بن الحكم عند معاوية، فقال ابن الزبير: يا معاوية لا تدع مروان يرمي جماهير قريش بمشاقصه [2]، ويضرب صفاتهم بمعوليه، فإنه لولا مكانك لكان أخف على رقابنا من فراشةٍ وريشة نعامة، وأقل في نفوسنا من خشاشة، ولئن ملك أعنة خيل تنقاد له ليركبن منك طبقا- تخافه. فقال له معاوية: إن يطلب هذا الأمر فقد طمع فيه من هو دونه، وإن تركه تركه لمن هو فوقه، وإن أراكم منتهين حتى يبعث الله عليكم من لا يعطف عليكم بقرابة، ولا يذكركم عند ملمة، ويسومكم خسفا-، ويوردكم حتفا-. قال ابن الزبير: إذن والله نطلق عقال الحرب بكتائب تمور كرجل الجراد حافتاه الأسل، لها دوي كدوي الريح، تتبع غطريفا- من قريش لم تكن أمه براعية ثلة. فقال معاوية: أنا ابن هند أطلقت عقال الحرب، فأكلت ذروة السنام، وشربت عنفوان المكرع، وليس للآكل إلا الفلذة، ولا للشارب إلا الرنق[3].

مالك لم تجب صاحبك!:

وروى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبد

(1) الزجاجي، أخبار أبي القاسم الزجاجي، 44/1.
(2) المِشْقَصُ: سَهْمٌ فِيه نَصْلٌ عَرِيضٌ يُرْمَى به الوَحْشُ.
(3) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 100/2.

الله بن الزبير اجتمعا ذات يوم في حجرة عائشة - رضي الله تعالى عنها - والحجاب بينهما وبينها، يحدثانها ويسألانها، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة- وعائشة تسمع، فقال مروان:

فمن يشأ الرحمن يخفض بقدره :: وليس لمن لم يرفع الله رافع

فقال ابن الزبير:

ففوض إلى الله الأمور إذا اعتدرت :: وبالله لا بالأقربين أدافع

فقال مروان:

وداو ضمير القلب بالبر والتقى :: فلا يستوي قلبان: قاسٍ وخاشع

فقال ابن الزبير:

ولا يستوي عبدان، هذا مكذب :: عتل لأرحام العشيرة قاطع

فقال مروان:

وعبد يجافي جنبة عن فراشه :: يبيت يناجي ربه وهو خاشع

فقال ابن الزبير:

وللخير أهل يعرفون بهديهم :: إذا اجتمعت عند الخطوب المجامع

فقال مروان:

وللشر أهل يعرفون بشكلهم :: تشير إليهم بالفجور الأصابع

فسكت ابن الزبير ولم يجب، فقالت عائشة رضي الله عنها: يا عبد الله، مالك لم تجب صاحبك! فوالله ما سمعت تجادل رجلين تجادلا- في نحو ما تجادلتما فيه، أعجب إلى من تجادلكما؛ فقال ابن

الزبير: إني خفت عوار القول فكففت، فقالت عائشة رضي الله عنها: أما إن لمروان إرثا- في الشعر ليس لك من قبل صفوان بن المحارث الكناني - وكانت أم مروان آمنة بنت علقمة بن صفوان [1].

من كلامه - غفر الله له - :

- وجبت الجنة لمن خاف النار.

- ولما انصرف مروان بن الحكم من مصر إلى الشام استعمل عبد العزيز ابنه على مصر، وقال له حين ودعه: أرسل حكيما- ولا توصه. أي بني، انظر إلى عمالك، فإن كان لهم عندكم حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية، وإن كان لهم عشية فلا تؤخره إلى غدوة، وأعطهم حقوقهم عند محلها، تستوجب بذلك الطاعة منهم. وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك في الحق. واستشير جلساءك وأهل العلم، فإن لم يستبن لك فاكتب إلي يأتك رأيي فيه إن شاء الله تعالى. وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سورة الغضب، واحبس عنه عقوبتك حتى يسكن غضبك، ثم يكون منك ما يكون وأنت ساكن الغضب منطفئ الجمرة؛ فإن أول من جعل السجن كان حليما- ذا أناة. ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة، فليكونوا أصحابك وجلساءك، ثم اعرف منازلهم منك على غير استرسال ولا انقباض. أقول هذا واستخلف الله عليك [2].

- قال مروان بن الحكم لابنه يوصيه: آثر الحق وحصن مملكتك بالعدل فإنَّه سورها المنيع الذي لا يغرقه ماء ولا تحرقه نار ولا يهدمه

(1) ابن ظافر الأزدي، بدائع البدائه، 51/1.
(2) ابن عبد ربه الأندلسي، العقد الفريد، 12/1.

منجنيق [1].

* * *

(1) ابن حمدون، التذكرة الحمدونية، 117/1.